لماذا يتجاهل د. يوسف عزالدين رياحة باكثير للشعر الحديث؟!

عبدالله الطنطاوي
سورية

استمتعت بقراءة المقال الذي كتبه الدكتور يوسف عزالدين في العدد الرابع والعشرين من مجلة الأدب الإسلامي الزاهرة، وبعد قراءته، تساءلت: هل كان المضمون يقع تحت هذا العنوان (أيهما السابق في التجديد ونظم الشعر الحديث؟) فالعنوان يتضمن:

١- أيهما السابق في التجديد؟

٢- أيهما السابق في نظم الشعر الحديث؟

ويعني كلاً من الشاعرين المبدعين: نازك الملائكة، والسياب.

وكان فيما قاله الدكتور عن السبق في التجديد.

«ولو أن بدراً اعتمد على الأساطير العربية، والتراث الضخم، وأصالة هذا الأدب، وطوّره، لكان تجديداً». إذن.. ما كان ما فعله تجديداً، والله أعلم.

ثم يتابع الدكتور:

«بخلاف السيدة نازك الملائكة التي حافظت على الديباجة العربية، وجدّدت بكلّ رفق وتؤدة، وبحدود مقبولة، إضافة إلى حسّها الموسيقي المرهف، لأنها تعزف على العود، وتتذوق الأنغام الجميلة». ما شاء الله! معلومة مهمة أضفناها إلى معلوماتنا عن الشاعرة الكبيرة المبدعة، شفاها الله وعافاها، وأعادها إلى حظيرة الشعر والنقد، فقد شغر مكانها أو كاد!.

ثم يتابع الدكتور - ومعذرة لتقطيع كلامه، وبإمكان القارئ أن يصل ما انقطع من كلامه:

«لهذا فإنّ بدراً أكثر إحساساً بالتجديد والتطور، لأنه أكثر اتصالاً بالشعر الإنكليزي، وكان شديد العناية بدراسته، وتتبع تطوّره وتجديده طالباً، وتأثر به شاعرا».

أستميحك العذر يا دكتور، لم أفهم ما قلت.. فمن المجدد في رأيك؟ نازك أم السياب فيما نقلته عنك؟

ثم... ألا ترى معي ثقل اسم التفضيل (أكثر) في استخدامها مرتين فيما لا يتعدد؟ أليس كلمة (أشد) مثلا خيراً منها؟

على أي حال.. ننتقل إلى البند الثاني من مقال الدكتور: أيهما السابق في نظم الشعر الحديث؟ يعني التفعيلة.

كأني بالدكتور حصر الريادة في نازك والسياب ابتداء، كأني به كان ينظر إلى مقالي (مع رواد شعر التفعيلة) الذي نشرته في مجلة (الآداب) في العدد التاسع (أيلول ١٩٦٩) أي قبل واحد وثلاثين عاماً.. أجل.. أقول: كأنه كان ينظر إليه، وهو يعدّد بعض الأسماء التي كنت ناقشتها في مقالي، أعني الشعراء والكتّاب: نازك - السياب - أبو حديد - باكثير - أبو شادي - د. كمال نشأت - الزهاوي - غالي شكري - صلاح عبدالصبور - لويس عوض - نا جي علوش - إنعام الجندي - النويهي - سيد قطب - مختار الوكيل - د. عبدالهادي محبوبة - عبدالرحمن شكري - خليل شيبوب..

وما أحسب الدكتور لم يقرأه، ولم يقرأ الردود الكثيرة عليه، فقد استمرت أكثر من سنة، شارك فيها الدكتور سيد ياسين، والدكتور كمال نشأت،

وغالي شكري، وسليمان فياض، وسواهم، وكان في بعضهم حدّة، ولكنّ أيا منهم لم يستطع دحض ما توصلت إليه في دراستي، من أن رائد شعر التفعيلة هو الشاعر علي أحمد باكثير الذي سبق نازك والسياب بضع عشرة سنة، ولست أدري ما إذا كان الدكتور يوسف لا يعد ترجمة مسرحية كاملة (روميو وجولييت) وتأليف مسرحية كاملة، بفصولها الأربعة أو الخمسة، وبصفحاتها التي جاءت في حوالي مئتي صفحة، نظمهما الشاعر باكثير شعراً حرّاً.. شعر تفعيلة.. وأفادت نازك من بعض آرائه في شعر التفعيلة، وعدّه السياب رائد الشعراء الذين ينظمون أو يشعرون على الطريقة الجديدة، طريقة شعراء التفعيلة..

أقول: ألا يكفي هذا، مع ما نظمه باكثير فيما بعد، ليقرّ الدكتور بأن باكثير هو السبّاق، وهو الرائد؟

الدكتور من قراء (الآداب) ومن كاتبيها، و(الآداب) كانت وما تزال، مجلة الأدب الأولى في الوطن العربي، منذ ظهورها، وما كان أديب أو متأدب إلا ويطلع عليها، وكثير منهم يقتنونها..

ثم إني نشرت ذلك المقال في كتابي: (دراسات في أدب باكثير) المطبوع عام ١٩٧٥م، ثم نزل - سهواً - في كتابي (فلسطين واليهود في مسرح علي أحمد باكثير) عام ١٩٧٧م، وأحسب أن الدكتور لم يطلع عليهما حتماً. وكان الأستاذ الشاعر الناقد محمد الحسناوي فيمن شارك في الردّ على بعض هؤلاء، كالدكتور سيد ياسين. قال الحسناوي في العدد الثامن من مجلة (الآداب) عام ١٩٧٠م ردا على سيد ياسين الذي نقد مقال (مع رواد الشعر الحر) للكاتب عبدالله الطنطاوي الذي دلّل بالحجة والاستقصاء على ريادة باكثير للشعر الحر، أو الحديث، أو شعر التفعيلة، من دون بدرشاكر السياب، أو نازك الملائكة، أو فريد أبي حديد، أو أحمد زكي أبي شادي، أو لويس عوض، فإذا بالسيد ياسين يستلب الريادة من الرجل، ومن كل رائد على ظهر الأرض، إذ يقول: «وكما أننا لا نستطيع - من وجهة النظر العلمية - نسبة التحولات الكبرى في التاريخ إلى أفراد أعلام - لاشك في عظمتهم - فنحن هنا أيضا إذا ما التزمنا بالمنهج العلمي في دراسة الأدب - لا نستطيع أن نسلّم بأن فلاناً من الأدباء، هو الرائد الأول للقصة القصيرة، أو للرواية، أو للشعر الجديد» - الآداب: ١٩٦٩/١٠ - .. هكذا إذا ما التزمنا بالمنهج العلمي! وأي منهج هذا المنهج العلمي؟ ولكن.. هل هذا النوع من المعرفة - ولا أقول العلم - هل يبطل دور (العوامل الذاتية التي تتمثل في الجهد الخلاق للأدباء، ونوعيّة تكوينهم الثقافي، وانتماءاتهم الأيديولوجية والاجتماعية التي تؤثر تأثيراً حاسماً في نوعية إنتاجهم؟.. هذه العبارات من كلام سيد ياسين نفسه، فما الجريمة التي اقترفها عبدالله الطنطاوي لما - أجهد نفسه للعثور على الرائد «الأول» للشعر الجديد»؟ - انظر كتاب (في الأدب والأدب الإسلامي) تأليف محمد الحسناوي ص: ٢٦٣.

كنا نظن أن الموضوع قد حُسم، بعد كل تلك المناقشات والردود التي لم يستطع واحد من كتابها أن يدحض ما انتهيت إليه، من أن باكثير هو الرائد - كما قلت - وعندما التقينا الشاعرة الرائعة نازك في فندق الصخرة في لبنان عام ١٩٧٢ بحضور زوجها الدكتور عبدالهادي محبوبة لم تنكر ريادة باكثير، ولكنها لم تكن تعرف عنه هذا، كما كان السياب الذي كان يهديه دواوينه، ويكتب له في الإهداء كلمات يعترف فيها بسبق باكثير في هذا المضمار، كماجاء في مقدمة مسرحية (أخناتون ونفرتيتي).

وقد نشرت وقائع هذا اللقاء في جريدة (الحياة) اللندنية في العدد ١١٢٧٥ تاريخ ٢٨ من كانون الأول ١٩٩٣ وأرفق - لمجلتنا الحبيبة - صورة عنه، وصورة عن مقالي في (الآداب) للاطلاع، واطلاع من يشاؤون عليهما.

لقد أشار الدكتور إلى باكثير إشارة عابرة، ولكنه كان قد حسم الأمر من العنوان، ومن الكلمات الأولى التي قرّر فيها، أن نازك والسياب أول من جاء بشعر التفعيلة: «وحسب هؤلاء أن الشاعرين - السياب ونازك - هما أول من جاء بالشعر الحر» والأمر ليس كذلك، وهذا لا يضير شاعرينا الكبيرين المبدعين: نازك والسياب، لأن هذا حقيقة تاريخية يجب احترامها، وردّ الفضل إلى أهله.

علي أحمد باكثير
صاحب الريادة المسلوبة